سياحة اسقفيّة الى بلاد بشارة

لحضرة المرسل اللبناني الفاضل الخوري ابراهيم حرفوش (تابع)

ومما خبروا به ان فيهم العصبية الشديدة فالحمولة عندهم او العائلة تتعصب جداً لحمولتها وقد يبالغون في هذا الامر فيتصل بهم الى حصر الزواج في العائلة وكثيراً ما يحصل عن ذلك من الاغتصاب والضغط على طالبي الزواج وبئس العادة . اما اخذ الثار عندهم فسنّة مرعية اخذوها عن مجاوريهم اي عرب البادية :

اما كبراؤهم ومشايخهم فقد يقع في نفوس العموم لهم من الوقار والتجلة ما تعده غلواً . وانما يؤسف جداً ان ترى بعضهم يتجاوزون حدود الانصاف فيصبح الضعيف من العامة طعمة لكل آكل :

واذا تفرست في مساكنهم واثاثهم فلا ترى عندهم ما يشعر بشيء من التانق الا ما استُحدث من البناء وهذا نادر جداً : فاذا دخلت باب المسكن رأيت على يمينك او شمالك الاصطبل وهو زرب للماشية وفوق الاصطبل السدة وهي ما يسمى عند اهل بلادنا المتخت وفي بعض البيوت تكون السدة بمنزلة البهو والديوان لاستقبال ضيف كريم ثم تصعد من الاصطبل بدرج من طين او حجر فاذا انت في بيت مدهونة ارضه بتراب زرقاء لماعة وحيطانه مطروشة بتراب صفراء وفي الجدران الاهراء او الكوائر من الطين المنقوش نقشاً بديعاً ملوناً وفي القرنة ترى المستوقد لايام البرد ينفذ الدخان منهُ الى السطح بداخون من الطين بهيئة قمع يتسع فوق المستوقد ثم يضيق تدريجاً الى ان يبلغ السقف وجل ما تراه من الاثاث الحصر من البساير الخشن ياتيهم من بحيرة الحولة وفي بيوت مشايخهم يجلون المقاعد المفروشة على الارض وفوقها الطنافس والسجادات : ثم ترى البرك او المرتبة في عرفهم وهو محل تحفظ فيه الفرشة الى ميقات المنام فتُبسط اذ ذاك على الارض . ثم ترى الاسلحة والملابس معلقة باوتاد مدقوقة في الحائط والبيوت عموماً مبنيّة بحجارة ولبن ولذا يسهل على السارق نقبها . اما السقف فمؤلف من قضب واخشاب قصيرة ملقاة على قناطر تسندها . والسطح يطيَّن بطين مشوب بالتبن لمنع الوكف وندر جداً استعمال القرميد او العدسة

واعلم ان سكان هذه البلاد عموماً يحصّلون معاشهم بشق النفس ومع ذلك ترى فيهم ميلًا شديدًا للضيافة ويتفانون في اكرام ضيفهم غير انهم لا يعرفون التأنق في علاج الاقوات واستجادة المطابخ: فالارزّ عندهم هو الطعام الفاخر ومع اللحوم يبسطون موائد الطعام على سدر من نحاس او طبق من قش ملون يجيدون صنعه وقد درج عندهم مؤخرًا استعمال الملاعق والشوكة او الفرتيكة وهذه الآخرة نادر استعمالها . اما الاقداح فاخذ يدرج استعمالها على اثر المهاجرة الى امركة وقد يستخدمون كوبًا واحدًا يشرب منهُ المدعوون كلهم. خبزهم المرقوق على الصاج او التنور وهذا النوع من الخبز المرقوق او المرقق اخذناه في بلادنا وغيرها عن العرب وهولاء اخذوه عن الفرس. قال ابو خلدون: لمّا قُدّم المرقق للعرب في بلاد فارس فكانوا يحسبونهُ رقاعًا. وقد شاهدنا بعض الافرنج لمّا قدّم لهم المرقق في بلادنا ظنوه فوطة او منشفة:

واذا عرض لاهل بلاد بشاره شغل شاغل عاقهم عن طحن الحبوب عمدوا الى رحى عندهم يسمونها الجاروشة فيجرشون الحنطة ثم يعجنون ويعملون اقراصاً من هذا الجريش وينضجونهُ على الجلّة وهذا ما اشار اليهِ احد الانبياء في الكتاب الكريم

اما الصنائع عندهم فقليلة جدًا والتجارة لا اسم لها قلما ترى حانوتًا في القرية وذلك لاستعاضتهم عن الحوانيت بالاسواق العموميّة التي تقام في اوقات معينة من ايام الاسبوع في بعض الاماكن كسوق بنت جبيل وغيره كما سترى

فلنعودنّ الآن الى تتمّة سياحتنا الرسوليّة في انحاء بلاد بشارة . وكان اوّل ما رأيناهُ بعد خروجنا من عين ابل قرية بنت جبيل . ولم يشأ اهلها الّا ان يخرجوا للاقائنا برونق عظيم لئلّا نحلّ بينهم كما فعلنا في عين ابل . فدخلنا القرية محفوفين باعيانها الذين تأتّوا في اكرام راعيهم

وقرية بنت جبيل قائمة على رابية قليلة الارتفاع تمتدُّ في وادٍ ليس بالعميق وهي في مقام مدينة يهودية قديمة ترى آثارها ولم يتفق العلماء على اسمها السابق . ومن المحتمل ان تكون بيت شمس المذكورة في سفر يسوع (١٩ : ٣٥) اورد اسمها بعد بيت عاناث وهي عاناثا الحاليّة القريبة منها . وفي بنت جبيل سوق على مثال الاسواق القديمة يجتمع فيها اهل بلاد بشارة ليبيعوا ويشتروا . وقد وصف حزقيال اسواق صور وفي وصفهِ ما

يبين انَّ الشرقيين اذا ما الفوا عادة جروا عليها ابدًا. وقد تمكنَّا من رسم بنت جبيل يوم اجتماع الناس لسوقها

ومما عثرنا عليه اتفاقًا في بنت جبيل كتابة يونانيَّة من عهد الرومان على عتبة قديمة مطروحة في ازقة القرية. ثم علمنا بعد ذلك انَّ السيَّاح نشروهـا . وان لحضرة الاب سبستيان وتزقال عليها ملحوظات سينشرها قريبًا

رحلتنا الى دبل

بعد ان انتهى سيادة المطران شكر الله من زيارة عينبل وجَّه النظر الى قرية دبل فقصدناها في صحبته في ١٢ ايلول. ودبل هـذه قرية من قائقاميَّة صور تابعة مديريَّة تبنين تبعد عن عينبل نحو الساعة موقعها في غربهـا الشمالي وهي تعلو فوق سطح البحر ٦٨٠ مترًا. وفي دبل كنيسة ومدرستان تحت ادارة الآباء اليسوعيين. واهلهـا كلهم موارنة يبلغ عددهم نحو ٥٠٠ وكان الشيطان ضرب قبابهُ في هذه القرية ووسوس في عقول بعض اهلهـا فانحازوا الى المذهب البروتستانيّ من بضع سنوات لكنَّ الله مسَّ قاربهم لمَّا رأوا راعيهم الصالح فعادوا الى حجر امهم الكنيسة فاقتبلهم سيادتهُ بحفلة كنسيَّة مؤثرة وحلَّهم من خطيئتهم

ودبل قرية مشهورة بخصبها وهي قديمة العهد كانت داخلةً في ضمن حدود سبط نفتالي. وفيها آثار دارسة ومساكنها مبنيَّة من انقاض بنايات قديمة . وفيها قبور منقورة بالصخر على بعضهـا اعلام يونانيَّة قرأها العلَّامة كرين (Guérin). وعلى مقربة من دبل عدَّة اخربة تشهد بقاياها على قدم عهدها . منها الطيرة شرقًا التي ورد ذكرهـا في صك ليغدوين الثالث فدعاها Aithire . ومنها بيت ليف غربًا يرى المسيو كرين انَّها حالف المذكورة في سفر يشوع (١٩ : ٣٣) الواقعة في سبط نفتالي وكان مركزهـا القديم على اكمة قريبة من القرية في محلّ يُدعى عزيبة . وفي بيت ليف آثار منها عتبة قديمة تُرى تحت جامعها عليها صورة اترج وقد شاهد اصحاب العاديات مثل هذا النقش في ابنية اليهود القديمة في بلاد الجليل . ومنـها ايضًا حزُّور غربي دبل وجنوبي شرقي بيت ليف تمتدُّ اخربتها في منبسط من الارض. والمرجَّح انهـا مدينة عين حاصور الوارد اسمها في سفر يشوع (١٩ : ٣٧) في جملة املاك نفتالي. وحتى اليوم ترى اساس بيوتها ظاهرة بين الادغال وشجر الغار . وهنـاك آثار برج مكعَّب على جوانبهِ تسعة

امتسار وهو مبني بحجارة ضخمة وبالقرب منهُ بركة ماء طولها ٢٢ متراً في عرض ١١ . وفي شرقيها اكتشفنا بقاية حنيَّة كنيسة قديمة اظنُّهـا من الطرز البوزنطي . ومن جملة اخربتها مدفن يُنزَل اليهِ بدرج وهو اليوم مسدود واهـل القرية يدعون هذا المدفن بني حزُّور او حاصور . وعلى المدفن قبة معقودة على الطرز الروماني وهي احدث عهداً من المدفن . وماء عين حاصور يأتيها من مسافة قرية من مورد يدعى بئر العيون ولعل حاصور لم تدعَ عيناً الَّا لوجوده

حفلة عرس في دبل

اذ كنَّا في دبل سمعنا في احدى الليالي صوت طلقات البارود فسألنـا عن سبب ذلك فقيل لنا يوم غدٍ يُعقد لفلان على ابنة فلان ثمَّ اخذ القوم يسردون لنا عاداتهم في مثل تلك الظروف فاحببنا اثباتها هنا تفكهة للقراء

اذا اراد شاب ان يخطب فتاةً يجتمع والد الخطيبين سرًّا فيتَّفقا على ما يقرّرهُ والد الخطيب لوالد الخطيبة كمهر ابنتهِ يدفعهُ لهُ ويزيد على ذلك ما يدعونهُ بالمؤكلة اي ثمن المرطبات والمشروبات والحلويات التي ينفقونهـا في دعوة العرس . ثمَّ يوجه آل الخطيب وفدًا الى بيت الخطيبة فيعرض احدهم وهو عادة كاهن المكان سؤلهُ على والد الصبيَّة : « قد وجَّه بنـا فلان اليك لنخاطبك بداعي خطبة ابنتك لابنهِ » . فيجيب الاب على عادة الشرقيين بلغة التجامل : « لا ابنة لي وعمها واعمامها في الحياة (ويذكر اسماءهم) فالامر لهم » او يجيب : « انَّ ابنتي مقدَّمة لكم » . فاذ ذاك يذهب عميد القوم الى مواجهة الابنة وطلب رضاها وتكون مختبأةً في بيت احد الجيران فيقول : « فلان وجَّه الى ابيك مع اوجه بلدنا ولم يجزم ابوك بشيء قبل اخذ رضاك ورأيك (١ فتجيب الابنة : « الامر الى والدي واعمامي فانا مطيعة لهم » لكن الكاهن او لسان القوم يلح عليهـا الى ان تصرّح برضاها فتقبل يده دلالةً على ذلك . فتُطلَق اذ ذاك العبارات النارية في دار والد الخطيبة ويتغنون بالاهازيج وينهض رجل من اقارب الخطيب ويجعل في كيس من الخام كميَّة من الملبَّس يوزعهُ على الحضور ثمَّ يباركون لوالدي العروسين ويقررون ثمن المهر ويبلغ

١) راجع في سفر التكوين ما روى مثل هذه العادات في خطبة رفقة (ف ٢٤) وفي خطبة راحيل (ف ٢٩)

عادةً الالفين عرشًا يسلمهُ والد الخطيب الى والد الخطيبة ويتحف الخطيبة ببعض الحلي ثمّ يقبّل راس والد الخطيبة ورأس الحضور وينصرفون

وبعد هذا يعيّنون معدّات العرس ويعيّنون ميقات العقد ويعدّ الخطيب الخلع التي يرسلها لاصحابهِ الذين يدعوهم الانجيل (متى ٢٢: ١٥) بابنـاء العرس حتى اذا آن الوقت يبدأون بحفلة العقد او الاكليل . وتلك الحفلات تدوم مدّة اسبوع يجتمع فيها المدعوون والاصحاب كلّ ليلة لما يسنّي باصطلاحهم التعليلـة فيشربون المسكرات ويقومون للسحجة او الدبكة . ومن عاداتهم في الاسبوع الذي يسبق حفلة الاكليل انهم يخرجون للاحتطاب اعدادًا لضيافات العرس بجلبة عظيمة ومعهم الجمال والدواب يتقدّمهم جمل على ظهره مذراة او عصًا منصوبة يلبسونها اثوابًا كالعروس فيظنها الناس عروسًا ملتفّةً بازارها واذا جمعوا الحطب اتوا بهِ الى بيت والد الخطيب ويعطون منهُ حملًا واحدًا لاهل العروس ومثلهُ للاشابين (١

واذا اتى يوم السبت يطلب والد الخطيب من والد الخطيبة بان يسمح بغسل العروس فلا يرضى بذلك الّا اذا دفع مهرها بتمام فتجتمع اذ ذاك النساء في منزل الخطيبة فتُغسل وتزيّن وتصبغ بالحنّاء . وكذلك النساء يصطبغن وتُجلى وتكحل وتُرش عليهـا الروائح الطيبة وتُلفّ بازارها ويغطّى وجهها بقناع لا تُميطه الّا بعد ايام العرس وترسل العروس الى بيت اقاربها تدعوهم الى عرسهـا فمن لم تحضر من النساء ارسلت خاتمها او عصابتها للخطيبة معتذرةً . وتُقضى تلك الليلة في الافراح في بيت العروسين الى ما بعد نصف الليل وقد اشار السيد المسيح الى مثل هذه العادة في انجيلهِ الطاهر (لوقا ١٢: ٣٦) . وفي بعض الامكنة كما شاهدنا ذلك في النـاصرة يدورون في القرية والاسواق في موكب حافل ويغنون انواع الاهـازيج ويتقدّم الموكب بنات يحملن المصابيح والمشاعل في ايديهنّ ذاهبات الى بيت الختن للاقامةِ وللاحتفاء بتكليلهِ في الكنيسة . وهي عادة ألفها القدماء . ووصفهـا الانجيل في مثل العذارى الحكيمات والجاهلات (متى ف ٢٥)

واذا انبلج صباح الاحد يذهبون بالعروسين الى الكنيسة فيبـارك الكاهن زواجهما

١) جاء في مقدمة ابن خلدون في معرض كلامهِ على عرس المامون « انهُ اعدّ بدار الطبخ من الحطب لليلة الوليمة نقل ١٤٠ بغلًا مدّة عام ثلاث مرات في كل يوم »

حسب الرسوم المألوفة ويعودون بالعروس الى بيت والدها ويعود زوجها الى بيته ثمّ يتبادر اهل المحل الى دعوة العروس لتزور بيوتهم فيُركبونها جوادًا ويبدها اليمين منديل فيضيفونها في كل بيت ويحتفون بها وربما قضوا عليها بالرقص فتفعل باشارة اشيبتهـا وهي في يدها كآلة وان دخلت بيتًا وقدم البيت احد قامت لهُ ولا تعود الى الجلوس حتى تؤمر بذلك. واذا جاء وقت دخولها بيت زوجها لاوّل مرّة تُقدَّم لها خميرة لتلصقها فوق عتبة البيت وفي بعض الامكنة يضربها زوجها بيده او بعصاً على راسها اشارةً الى ما يُطلب منها من الطاعة والخضوع والقيام بالاشغال البيتية

ومن عوائد اهل علماء الشعب وغيرهم في بلاد بشارة ما يُعرف « بـرقة العريس » فانَّ رجلًا منهم مزوجاً يخفيهِ في بيتـهِ ولا يكشف امرهُ الّا اذا جزروا جزورًا وذبحوا الذبائح فيأخذونهُ ويحلقون حولهُ ويجلسونهُ على كرسيّ. ويتقدَّم احد وجهاء القوم ويقول: « بحماية فلان صاحب الوجاهة » ويضرب سكينًا ويغرسهـا في الارض فيعقون اذ ذاك العريس من الوقوف عن كرسيهِ لكل آتٍ واذا اتَّفق انَّ هذا سها عن دعوة احد الشبان الى عرسهِ واتى الشـاب وجب على العريس ان يقف على رجلٍ واحدة ولا يجلس الّا بعد استعطاف خاطر الشاب المنسيّ

هذه بعض عادات اهل بلاد بشارة مما شهدناهُ او رُوي لنا فذكرناهُ بيانًا لعادات تلك الانحاء ودلالة على ثبات الشرقيين على رسومهم القديمة (لهُ بقيّة)

مطبوعات شرقية جديدة

نفثات القلم على يد العلم

من قلم المسيو يوسف العلم النائب الاسقفي في ابرشية بيروت

طُبعت في بيروت سنة ١٩٠٧ (ص ٩٨)

تُعرف الورقاء من سجعها كما يُعرف الاسد من زئيرهِ. وفي هذا المجموع طُرف شعريَّة رقيقة النظم تذكرنا بسجع الحمام وخطب فلسفيَّة متينة البرهان بليغة المعاني تدوي في القلوب كزئير الضرغام وقد كنَّا طربنا سابقًا لكثير من هذه الآثار عنـد